تعدد مفهوم الآخر في الدراسات الثقافية

مدرس مساعد: طارق زياد محمد
طالب دكتوراه ـ قسم اللغة العربية
كلية التربية للعلوم الإنسانية
جامعة بابل – بابل – العراق

تاريخ الإرسال: 2020-08-04	تاريخ القبول: 2020-09-07

ملخص:

يعد مفهوم الآخر من أكثر المفاهيم حضورا في الكتابات المعاصرة حيث أصبح قضية مركزية في جل الدراسات السياسية والاقتصادية والفكرية والثقافية والنقدية والمؤتمرات والندوات والملتقيات في معظم مناطق العالم على حد سواء.

إنَّ دراسة مصطلح الآخر تنخرط ضمن البحوث المتخصصة في الحديث عن التواصل الذي يقوم بين طرفين يكون فيه الطرف الثاني آخراً للطرف الاول حتى لوكانا ينتميان لمجتمع واحد و نسق ثقافي واحد . و تمثل الثقافة العربية مرحلة تحول خطيرة اذ يتزاوج الانفتاح اللامحدود على ثقافة الآخرين بفعل ثورات الاتصال الهائلة حيث يتزاوج هذا الانفتاح بالسخط الجماهيري على الواقع .

الكلمات المفتاحية : (الآخر ؛ الثقافة ؛ الدراسات الثقافية ؛ النقد الثقافي)

Abstract:

The concept of the other one of the most present concepts in contemporary writings where it has become a central issue in most of the political, economic, intellectual, cultural and critical studies, conferences, seminars and forums in most regions of the world alike.

The other term is a type of human communication between two parties in which the other party is the other party to the first party, even if they belong to one community and one cultural system. The Arab culture represents a dangerous transformation stage, where the limited openness to the culture of others is coupled

with the huge revolutions of communication, where this openness is coupled with public discontent over reality.

Keywords: Other; Culture;Cultural Studies;Cultural Criticism

البحث:

مدخل:

يعد مفهوم الآخر من أكثر المفاهيم حضورا في الكتابات المعاصرة حيث أصبح قضية مركزية في جل الدراسات السياسية والاقتصادية والفكرية والثقافية والنقدية والمؤتمرات والندوات والملتقيات في معظم مناطق العالم على حد سواء.

إنَّ دراسة مصطلح الآخر تنخرط ضمن البحوث المتخصصة في الحديث عن التواصل الذي يقوم بين طرفين يكون فيه الطرف الثاني آخراً للطرف الاول حتى لوكانا ينتميان لمجتمع واحد و نسق ثقافي واحد. وتمثل الثقافة العربية مرحلة تحول خطيرة اذ يتزاوج الانفتاح الامحدود على ثقافة الآخرين بفعل ثورات الاتصال الهائلة حيث يتزاوج هذا الانفتاح بالسخط الجماهيري على الواقع.[1] وعلى الرغم من تنوع الثقافات المحوم بالجغرافية فإن هناك علاقة بين الثقافات الانسانية، مثلما تدخل ثقافتنا عنصراً مكوناً من عناصر ثقافة الآخر بدرجات متفاوته على وفق كل الاحتمالات الممكنة.[2]

ولابد قبل الدخول في البحث التعريج قليلاً على المعنيين اللغوي والاصطلاحي للآخر والربط بينهما معرفيا .

الآخر لغة:

[1] – ينظر : السلطاني أ.د عبد العظيم رهيف ، ثقافات منحنية ، 38

[2] – المصدر نفسه ، 5

❖ يقول ابن منظور: ((آخر بفتح الشيئين وهو اسم على (أفعل)، والأنثى آخري...، والآخر بمعنى غير، كقولك: رجل آخر ، وثوب آخر))[1] فالآخر هو ذلك الغير المقابل لمفردة آخر الذي يعني احد الشيئين ويكونا من جنس واحد.[2] وفي معجم العين الآخر: ((الغائب ...وأما آخر فجماعة آخرى))[3]. والآخر هو: ((اسم خاص للمغاير بالشخص و بعبارة أخرى : اسم مغاير بالعدد ، و قد يطلق على المغاير في الماهية ايضاً))[4].

إنَّ الآخر في اللغة العربية هو: ((ترجمة لمصطلح تنامى في اللغات الاوربية و لاسيما الانكليزية والفرنسية ... واصبح يرد بوصفه بنية لغوية رمزية لاشعورية تساعد الذات في تحقيق وجودها ضمن علاقة جدلية بين الذات ومقابل لها هو من يطلق عليه الآخر.))[5]

فهذا الرأي هو ما تبنته التحليلات النقدية على مسارها الطويل في الدراسات الادبية ولم ينفصل عن رؤية المعاجم اللغوية ولا عن الرؤى النقدية الادبية العربية .

الآخر اصطلاحاً :

وقد يرتبط مفهوم الآخر دائما بمفاهيم مجاورة، خاصة في الدراسات الفكرية والنقدية، أبرزها: الأنا؛ الاختلاف؛ الثقافة؛ الحضارة؛ الاستشراق؛ العرقية؛ الأقليات؛ المركز–الهامش؛ الخطاب؛ الهوية. ويعرف مصلح النجار وآخرون "الآخر أو الآخرون" بأنهم "فرد أو جماعة لا يمكن تحديدهم إلّا في ضوء مرجع هو (الأنا)، فإذا حدّدنا هوية الأنا كان الآخر فردا أو جماعة يحكم علاقته بالانا عامل التمايز وهو تمايز إطاره الهوية أحيانا والإجراء في أحيان أخرى".[6]

[1] – ابن منظور لسان العرب ، ، مادة (اخر).
[2] – ينظر : انيس د. إبراهيم و اخرون ، المعجم الوسيط ، 1 \ 8
[3] – الفراهيدي الخليل بن احمد ، العين ، تحقيق مهدي المخزومي ، 4 \ 303
[4] – الحنفي محمد بن علي التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون ، وضع حواشيه احمد حسن سبج ، 91
[5] – البازعي سعد ، الاختلاف الثقافي و ثقافة الاختلاف، 33
[6] – النجار مصلح وآخرون، الدراسات الثقافية والدراسات ما بعد الكولونيالية ، 51.

إذا، لا وجود لآخر دون وجود الأنا فلا بد من توفر شرط الاختلاف والتمايز حتى يمكن التفريق بينهما فكلاهما يحدد غيره ويحيل إليه، فبمجرد قول عبارة صورة الآخر يتبادر مباشرة إلى الأذهان مفهوم الذات أو الأنا.

ومما يجب الوقوف عنده في هذا المقام هو أن قضية الأنا والآخر لا ترتبط دائما بوجود علاقات ثقافية فقط بين الطرفين، وإنما يتسع المجال ليشمل العلاقات بين الجنسين (ذكر-أنثى) والعلاقات الاجتماعية، كما يحدث في إطار العرق والأقليات واللون أو حتى الدين والانتماءات الجنسية ضمن إطار جغرافي واحد.

وحسب سعد البازعي، يقسم بعض النقاد الآخر إلى "الآخر الفلسفي أو الفكري، الآخر النفساني، الآخر الإبداعي، الآخر الثقافي (الديني، الشعبي، الحضاري)"[1].

و بالرغم من سيولة المصطلح و عدم الامساك بمعالمه بوضوح ؛ اصبح الآخر شاغل الدنيا في العقود الاخيرة من هذا العصر، اذ تحول الى موضوعة العصر على صعيد السجال الثقافي بين مختلف التيارات الدينية والفكرية و الفلسفية، بل انها مقولة سيطرت على اهتمامات الحياة الفكرية العالمية [2]. والآخر في ابسط صوره هو : ((تمثيل او نقيض الذات او الانا))[3]. إنَّ الذات لا تدرك بصورة ذاتية مريحة وإنَّما يتم الادراك عبر الغير بالتفاعل الرمزي بسلسلة من الردود والافعال برسائل رمزية متبادلة [4].

إنَّ ظاهرة الآخر ظاهرة متجذرة في الوجود الانساني، و العلاقة مع الآخر بمعناها العامة، هي علاقة مع الوجود الذي يمثل الانسان جزءاً منه، شاء ذلك ام ابى، وطبيعة هذه العلاقة هي التي تحدد هوية الانسان وموقعه من الكون ودوره فيه، ومع تطور مجالات الدراسات الثقافية والنقد

[1] – البازعي سعد ، الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف ، 37
[2] – الشابندر غالب ، الاخر في القران ، 35
[3] – الرويلي ميجان – سعد البازعي ، دليل الناقد الادبي ، 21
[4] – لبيب الطاهر ، صورة الاخر العربي ناظرا و منظورا اليه ، 377

الثقافي اصبح مفهوم الآخر اكثر المفاهيم حضوراً في الدراسات الثقافية والسياسية والفكرية والثقافية في معظم مناطق العالم على حدٍ سواء [1]. فالآخر لدينا هو كل ما يتم التعامل والتفاعل معه ويُتخذُ منه موقفاً سلبياً او ايجابياً في اطار هذا التفاعل.

الاستغراب و الاستشراق كمفهوم ثقافي :

الاستغراب: اكتسبت الامم والشعوب على اختلاف اجناسها واعراقها؛ حدوداً من الاشتغالات الفكرية و الفلسفية عن طريق الوعي الذي قاد مسارات التجربة الحضارية و اسهم في بلورتها وتنوع ثقافاتها مرتكزاً في ابداعه على خصوصية الطرح ، وقراءة في المعالجة، وتمايز في التقديم، فعرفت من خلالها الذات المنتجة (الانا) والذات المختلفة المستقبلة (الآخر).

ونظراً للإشكالية التي تحدد طبيعة علاقة (الأنا و الآخر) بين التمايز والخصوصية، أو بين الدمج والتغييب، أو بين الغالب والمغلوب، فقد اتجهت الدراسات الثقافية الى بيان طبيعة العلاقة بين هذه الثنائية و ما يحيط بها على صعيدين:

الأول: الانطلاق من دراسة (الأنا) برؤية (الآخر)

الثاني: الانطلاق من دراسة (الآخر) برؤية (الأنا).[2]

مثَّل الاتجاه الأول الدراسات الاستشراقية بينما مثَّل الاتجاه الثاني الدراسات الاستغرابية. وتحددت طبيعة العلاقة بين ثنائية (الأنا و الآخر) في الاتجاه الاول بأنهزامية الذات المدروسة في مقابل الذات الدارسة، في حين سعى الاتجاه الثاني الى ايجاد نوع من التوازن بين الذوات المعرفية ومحاولة وضع الإنتاجات الحضارية في ميدانها التي انتجت منه دون اقصاء أو تهميش.

إنَّ الاستغراب كما اظهره المفكرون العرب يقوم في اتجاهين:

[1] – ينظر : المصدر نفسه ، 377-378-379

[2] – سعدالله د. محمد سالم ، نظرية الاستغراب في الفكر العربي المعاصر ، مجلة فتوحات ، ع 1 ، 2015، 50

الأول: دراسة الغرب برؤية ذاتية شرقية.[1]

الثاني: سلوك معرفي متأثر بالغرب كلياً. [2]

فمن خلال هذين الاتجاهين يظهر للعيان معنى الاستغراب في الدراسات الثقافية للغرب بوصفه (آخر) للثقافة العربية. وقد ظهرت دراسات عديدة ، ولعلها الغالبية، لتركز على طبيعة صور الغرب في الثقافة العربية وكيفية تشكلها وانماطها، فالاستغراب هنا ليس ما يمارسه الباحثون اذ يتجهون للغرب، بل ما يمارسه الناس وتحمله الثقافة بوعي او دون وعي .[3]

حدد الدكتور حسن حنفي مادة مصطلح الاستغراب من حيث كونها مادة صرفة من صنع (الأنا) وتنظيرها وتحديدها لعلاقتها بـ (الآخر) وحوارها معه، وليست من نقد (الآخر) لنفسه ثم تقلده (الأنا) وتستعير نقده لنفسه.[4]

وقد عالج (طيب تيزيني) في كتابه (من الاستشراق الغربي الى الاستغراب المغربي) دعوة الدكتور حسن حنفي بإيجاد علم يسعى لدراسة (الآخر) ضمن ما اصطلح عليه (الاستغراب) وقد رفض (تيزيني) دعوة الدكتور حسن حنفي واصفاً المشروع بأنَّه رفض للآخر الغربي انطلاقاً من القطيعة والمفاضلة معه.[5] وأكد (تيزيني) أنَّنا لا يمكننا رفض الآخر بدعوى أنَّ الهوية الغربية

[1] – مطبقاني د. مازن ، نحو تأصيل اسلامي لعلم الاستغراب ، 27

[2] – ينظر: الشارف د. عبدالله ،الاستغراب في الفكر المغربي المعاصر ، 35 / و ينظر : الحياني د. محمود خليف ، الاستشراق و الاستغراب ، 9 / وينظر : سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الاسلامي ، عادل بن بوزيد عيساوي ، 19-20-21

[3] – دليل الناقد الادبي ، 38

[4] – حنفي د. حسن ،مقدمة في علم الاستغراب ، 18

[5] – ينظر: تيزيني طيب ، من الاستشراق الغربي الى الاستغراب المغربي – بحث في القراءة الجابرية للفكر العربي ، 314

تقليد وميوعة و فقدان للأصالة وضياع للذات، كما لا يمكننا التقريب ورأب الصدع بين هوتين متباعدتين كلياً، وعقد مقاربة بين اتجاهين متناقضين هما التغريب والسلفية.[1]

فالاستغراب يتجه الى دراسة (الآخر) معرفياً وثقافياً وحضارياً، وتحويل (الأنا) المعرفية الواعية الى ذات دارسة، بعد أن كانت على مدى عقود مدروسة، وفي المقابل تحويل (الآخر) المعرفي من ذات دارسة الى ذات مدروسة بمعنى آخر دراسة الوعي الاوربي بكل مفاصله للوصل الى نقاط تأثيره وتأثره. وبمعنى ادق تحويل كل المعرفة التي حصل عليها (الآخر) من عندياته أم من عنديات الحضارات الأخرى الى معرفة نسبية يمكن مسك خيوطها وتوضيح فجواتها بطرائق علمية عقلانية غير مفتعلة.[2]

فالاستغراب ليس نفياً (للآخر) وليس الحكم عليه بالموت، وليس اسقاط العقلانية عنه، وليس نفياً معرفياً له، إنَّه بكل وضوح درس علمي لنتاجاته، وعودة الثقة الغائبة عن (الانا) منذ عقود ساد فيها الانبهار والانحناء والتعظيم لمعطيات (الآخر).

أما **الاستشراق** فهو أسلوب للتفكير يرتكز على التمييز الثقافي والعقلي والتاريخي والعرقي بين الشرق و لغرب [3]. وقد نشأت العلاقة بين الشرق والغرب منذ أقدم العصور التاريخية وهذا لطبيعة موقعهما الجغرافي ومركزهما الخطير فيه فليس غريبا مع هذه العلاقة الوثيقة أن يهتم أحدهما بالآخر، وليس عجيبا أن يظفر الشرق بمزيد من العناية لسحره الروحي و عظمته الخالدة و اريخه الحافل بالأمجاد والبطولات، ففيه نشأت حضارات و نبتت فيه ثقافات أخرى وبتدعت آداب ، وولدت فلسفات وقامت ثورات و نزلت أديان ووضعت نظم ورسمت سياسات، فكان ولم يزل منطقة صراع عنيف دائم ومسرحا للانقلابات السياسية والفكرية والاجتماعية[4]. وقد لجأ

[1] – ينظر: المصدر نفسه، 315

[2] – ينظر: سعدالله د.محمد سالم ،نظرية الاستغراب في الفكر العربي المعاصر ، 61

[3] – حنفي د. حسن ، مقدمة في علم الاستغراب ، 21

[4] – ينظر: فوك يوهان ، تاريخ حركة الاستشراق الدراسات العربية الاسلامية في أوربا حتى بداية القرن العشرين ، ترجمة عمر لطفي العالم ، 48

المستشرقون من أجل تحقيق أهدافهم، إلى وسائل وأساليب متعددة، ولعل من أهمها: تأليف الكتب في الموضوعات والدراسات العربية والدينية، وإصدار الموسوعات والمعاجم بلغات مختلفة، وقد اعتبرت هذه المعاجم والموسوعات مرجعاً لكثير من طلاب الدراسات العربية والإسلامية، وإلقاء المحاضرات وعقد الندوات في الجامعات والمعاهد والمؤسسات العلمية في العالم العربي جمع المخطوطات وفهرستها وتحقيقها ونشر الكثير منها، وخاصة تلك التي تحمل الأفكار الضالة والعقائد المنحلة، وقد بلغت المخطوطات العربية في مكتبات أوربا عشرات الآلاف، وكذلك قاموا بالترجمةحيث قام المستشرقون بترجمة المئات من الكتب والمؤلفات العربية والإسلامية إلى اللغات الأوربية، لقد ترجموا القرآن الكريم ووضعوا في الهوامش ومقدمات ترجماتهم تصوراتهم الخاطئة للحقائق والمفاهيم الإسلامية [1].

في أعقاب ما بعد استشراق" إدوارد سعيد "نشأت حركة تفكيكية كبيرة لتحليل النصوص ضمن ما يعرف بما" بعد الكولونيالية "كان الهدف منها مزدوجا ومتناقضا في ذات الوقت، ما بين من يؤكد وجود الشرق كنظام تمثلي للآخر(الغرب)كرس فيه أحادية متسقة أدت إلى تكوين كل ذلك التراث النمطي المنمذج عن الشرق المتخلف غير العقلاني وغير القابل للتغير(رينان– كرومر) وما بين معترض على النظرة المتحاملة وغير العادلة للاستشراق والمستشرقين الذين حركهم البحث العلمي كما يؤكد برنار لويس بعيدا عن فكرة العمالة الكولونيالية وإن تم استغلال أعمالهم ورواياتهم التاريخية للشرق كوسائل لفهمه وتسييره لاحقاً .[2]

[1] – ينظر : حميش سالم ، الاستشراق في أفق انسداده ، 27

[2] – مكيد مسعود ، سيميائية الاستشراق من البنائية الى التفكيك ، مجلة الصوتيات ، م 20 ، ع 1، 2018، 250

فالغاية ((ليست وصف لـ (الآخر) بل قراءة (الانا) في مرآة (الآخر) فليست الغاية قراءة باريس في ذاتها بل قراءة مصر في مرآة أوربا، وليست الغاية الذهاب الى باريس بل العودة الى مصر، وليست الغاية التعلم بل الافادة بالعلم)).[1]

فنظرتنا للاستشراق من خلال الدرس الثقافي لم تكن رؤية دفاعية عن (الآخر/ الشرق) بقدر ماهي رؤية احتوائية للآخر. فالاستشراق اليوم اضحى مصدراً فاعلاً عن العالم العربي والشرقي وهذا من الأهداف العلمية النزيهة للاستشراق. تبيّن لنا من خلال هذه الدراسة أن الاستشراق والمستشرقون قدّموا أشياء نافعة ومهمة في الفكر العربي الإسلامي، بحيث لا يمكن تجاهلها، وخاصة في مجال إحياء التراث والتبويب والفهرسة وجمع المخطوطات، وغير ذلك من الأعمال التي تركت آثارا إيجابية على مسار النهضة. فـ (الأنا) الغربية التي اعجبت او اثارها (الآخر) الشرقي درسته بصفه عقلانية استكشافية ثقافية بغض النظر عن المأخذ التي سجلت على الاستشراق .

فقبول الآخر لو نفيه يقوم على صورة يبنيها صاحبها مثلما بنيت صورة (الثعبان او الشيطان) مثلاً. فالمهم هو ادراك أن موضوع النفي هو صورة الآخر والصورة غير الواقع، حتى وإن كان الصراع حولها من رهانات الواقع. لذلك فإنَّ مبررات الموقف من الآخر قد لا تجد مصدرها من الوعي بواقعه بقدر ما تجده في العلاقة بصورته. ومن المهم كذلك ادراك أنَّ صورة الآخر تحيل الى واقع من بينهما وتعبر عنه اكثر مما تحيل الى واقع من بنيت صورته.[2]

التسامح و قبول الآخر كمفهوم ثقافي:

في ظلّ غبار هذا المعترك الثقافي الذي يفرض الصراع والذي يقهر في أعماق الإنسان إرادةَ الخير والمحبّة والجمال، تتجلّى ضرورة تعزيز علاقات الحوار والتواصل بين الثقافات والحضارات وأتباع الأديان السماوية، حفاظاً على البقاء والتعايش بين شعوب العالم.

[1] – حنفي د. حسن ، جدل الانا و الاخر دراسة في تلخيص الإبريز للطهطاوي ، الندوة الدولية لعلم الاجتماع، تونس، 993 ، 40

[2] – صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا اليه، 192

ففي الوقت الذي تهيمن فيه ثقافةُ السوق والسلع والاستهلاك المادّي، يتوجّب على المجتمع الدولي أن يتحرّر من قيود ما يعرف بالإمبريالية الثقافية التي يفرضها النظام العالمي الجديد بقيادة محور قوةٍ واحدة، يقول إدوارد سعيد : ((يتوجّب أن لا تغيب عن بصرنا الحقيقةُ الساطعةُ بأن الولايات المتحدة تُحكم رباطاً متيناً حول العالم، وأن المسألة لا تعود إلى ريغان أو كلينتون اليومونفر من شاكلة(كيركباترك)فقط، بل تعتمد كثيراً على الخطاب الثقافي وعلى صناعة المعرفة وإنتاج النصوص وتسويقها. إنها باختصار لا تعتمد على(الثقافة) كميدان أنثروبولوجي عام يُنَاقَش ويُحلَّل روتينياً في دراسات ثقافية، بل على ثقافتنا نحن بوجه العصر))[1]

إنّ الحوار بين الثقافات لا تكتمل عناصره إلاَّ إذا توفَّرت له شروط التكافؤ والندية والإرادة المشتركة والاحترام المتبادل، فالحوار على أي مستوى وحول أي موضوع كان، لا يكون من طرف واحد، وإنما الحوارُ يتمّ بين طرفين يملك كلاهما إرادة الحوار، وإلاَّ كان فرضاً للهيمنة وممارسة للسيطرة التي هي المدخل إلى الغزو الثقافي. ولقد راج في الآونة الأخيرة القول بأن الغزو الثقافي وَهْمٌ من الأوهام .ونعتقد أن هذا الزعم جاء ردَّ فعل على الغلوِّ في افتراض الغزو الثقافي والمبالغة في الحديث عن محاذيره ومخاطره.[2]

إن الثقافات المعاصرة محكومٌ عليها بالحوار، بل إن مستقبل البشرية مرهونٌ بإقامة حوارٍ متحضّر وعاقلٍ ورشيد بين الحضارات والأديان. ولذلك فإن العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى، لابدّ وأن تقوم على أساسٍ متينٍ من الحوار والتعايش الحضاري والثقافي، والإفادة من كلّ جديد نافع ويظهر ذلك من خلال التسامح و قبول الآخر.

التسامح : الحاجة إلى التسامح وضعية طبيعية، وثقتها حالات، ووقائع الصراع بين بني البشر في كل العصور،و الثقافات و الحضارات التي مرت بها الإنسانية بتراثها الشفوي، والمكتوب وثائق ثقافية تقرر قوة الحاجة إلى التسامح، بحيث أصبح هذا السلوك مطلبا أساسيا ومهما لكل إنسان، ولكن غاية هذا المطلب اختلفت باختلاف الثقافات، والظروف والأوضاع ونظرا لأهميته

[1] – سعيد ادوارد ، تعقيبات على الاستشراق ، ترجمة : صبحي حديدي ، 78

[2] – ينظر : التويجري د. عبد العزيز بن عثمان ، الثقافة العربية و الثقافات الاخرى ، 40

هذا المطلب وخاصة في الوقت الراهن اعلنت الأمم المتحدة عام 1993 عام التسامح، وكما قامت منظمة اليونسكو إلى إعلان وثيقة حول التسامح وقد نصت المادة الأولى من إعلان مبادئ حقوق الإنسان على أن ((التسامح يعني الاحترام والقبول للتنوع الثري لثقافات عالمنا ولأشكال التعبير ولصفات الإنسانية لدينا))[1]

يجمع أغلب دارسي مفهوم التسامح على صعوبة ضبط معانيه ودلالاته، ولا يتعلق لدلالات الفلسفية الاصطلاحية، التي ارتبطت به خلال مراحل تشكله وتطوره سواء في المجال الديني أو في الفلسفات التي حاولت وضع حدود لمعانيه في القرن السابع عشر وما بعده، بل إنّ الأمر يتجاوز الدلالة الاصطلاحية نحو الدلالات اللغوية العامة التي تحملها مفردته.

ففي المنظور الفلسفي فالتسامح يعني ((سعة صدر تقترح للآخرين أن يعبروا عن آرائهم ولو لم تكن موضوعا تسليم أو قبول ولا يحاول صاحبها فرض اراءه الخاصة على الآخرين أما على التسامح الديني فهو احترام عقائد الآخرين))[2]

وعند لالاند : التسامح ((كلمة ولدت في القرن السادس عشر من الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت وبالعكس، ثم صار التسامح يرتجي اتجاه جميع الديانات في كل المعتقدات، وفي آخر المطاف في القرن التاسع عشر شمل التسامح الفكر الحر))[3]

ميز جون لوك في وقت مبكر بين نوعين من التسامح الذي تبناه ودعا إليه لأسباب دينية-مذهبية بحكم ظروف واقعه المعاش، فهو لديه إما تسامح (شكلي) مظهري أو تسامح (موضوعي) جوهري ، والتسامح الشكلي لديه هو أن تترك المعتقدات والشعائر الدينية أو المذهبية والاشياء الاخرى، ونقيضه هو إرغام أصحاب تلك المعتقدات الآخرى (غير الدين أو المذهب الرسمي أو السائد) على الخضوع لهيئة دينية في الدولة أو الكنيسة، أما التسامح

[1] – هذا القول مقتبس من إعلان المبادئ بشأن التسامح الذي اعتمدته اليونسكو في عام ١٩٩٥.
[2] – مذكور ابراهيم، المعجم الفلسفي ، 44
[3] – لالاند اندريه، موسوعة الفلسفة ، م 1 ، 146

الموضوعي لديه فلا يقتصر على مجرد ترك الأديان والمذاهب الآخرى وعقائدها وشعائرها وشأنها، بل هو أساسا اعتراف ايجابي بأنها عقائد دينية أو مذهبية ممكنة لعبادة الله [1].

والتسامح من حيث استمراريته يكون على نوعين :(دائم و مؤقت)[2] التسامح الدائم حيث تستمر الجهة المتسامحة في تسامحها مع الآخر المختلف على الرغم من تغير الظروف والأحوال، ويتطابق هذا النوع مع التسامح الموضوعي الجوهري الايجابي الاختياري. أما التسامح المؤقت حيث تتخلى الجهة المتسامحة عن تسامحها في ظل ظروف وأحوال معينة لتنتقل من التسامح إلى اللاتسامح، أو العكس، تنتقل من اللاتسامح إلى التسامح، ويتطابق هذا النوع مع التسامح الشكلي المظهري السلبي الاضطراري. ويمكن القول وفقا لهذين النوعين، أن التسامح الدائم يبدو أكثر اقترا لتسامح الموضوعي/الايجابي الاختياري، وأن التسامح المؤقت يبدو أكثر اقترا لتسامح الشكلي/السلبي الاضطراري .

أما في المنظور الثقافي فالتسامح هو قبول واحترام القيم والتقاليد والتوجهات الثقافية المختلفة، وعدم التمسك لقيم والتقاليد والتوجهات الثقافية الخاصة، و تأييد كل رغبة في التجديد أو أي شكل أو نمط للتغيير.[3] ويعبر التسامح الثقافي عن قبول الآخر واحترام الخصائص المختلفة لثقافات الآخرى في العالم ولأشكال التعبير المختلفة الخاصة بكل منها أو لأساليبها المختلفة في الحياة. إذ يعني التسامح التجانس مع الاختلاف، وهو يزداد مع المعرفة وانفتاح العقل على العالم و زيادة الاتصالات والتفاعلات مع الثقافات الأخرى، فضلا عن حرية التفكير والمعتقدات والممارسات، ومن ثم فإن التسامح يعبر عن اتجاه نشاط ينشأ ويزداد بالاعتراف بالحقوق الإنسانية الكلية و الحريات الأساسية للآخرين.[4] يكمن المنطلق الأساس للتسامح الثقافي في القدرة على احتواء التباين بروح نقدية، ورفض مختلف أشكال التعصب، لأن التباينات في المجتمع المتعدد

[1] – ينظر: جون لوك ، رسالة في التسامح ، ترجمة : عبدالرحمن بدوي ، 8

[2] – مصطفى عماري ، اشكالية التسامح في الفكر الغربي و الفكر العربي محاولة في التركيب ، مجلة البدر ، م 10 ، ع 2 ، 2018 ، 119

[3] – شعبان عبد الحسين، فقه التسامح في الفكر العربي الاسلامي، 58

[4] – التسامح الاجتماعي بين التراث و التغيير، اشرف عبد الوهاب، 77

ليست تباينات في الآراء بل تباينات ثقافية، والتباينات في الآراء متحركة بحيث إن معارض اليوم قد يكون حليف الغد في حين إن التباينات الثقافية لها حدود مرسومة تتميز بالصلابة والاستمرار والدوام دون أن تكون حتما نزاعية.

قبول الآخر: في البداية يجب أن نحدد من هو (الآخر) الذي علينا أن نتقبله ؟ هل هو (الغرب) بصفته آخر لـ (العرب) ؟ أم هو العالم العربي بصفته (آخر) للعالم الغربي؟ و هل عملية قبول الآخر متحققة فعلاً ؟كيف يتم ترجمة قبول الآخر في الدرس الثقافي ؟

إنَّ الثقافة كما يعرفها تايلور : ((هي ذلك الكل المركب الذي يضم المعرفة والاعتقاد والفن والأخلاق والأزياء، وكل الملكات الآخرى والعادات التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع))[1]، فهي بذلك الكل المكون من القيم، والمعتقدات، والمعايير، والتفسيرات العقلية، والرموز، والأيديولوجيا، وما شاكلها من المنتجات العقلية .وهناك من يعتبر أن الثقافة : ((الثقافة هي إشارة إلى النمط الكلي لحياة شعب ما، والعلاقات الشخصية بين أفراده و توجهاتهم))[2]. ومن المتعارف عليه أن الثقافة تلعب دوار مهما في حياة الناس، وعمليات التخطيط والتنمية، فخلق ثقافة تحتضن الكل وتحتوي الآخر وتدمجه، وهي مما لا شك فيه الأرضية التي تجري عبرها عملية التواصل، لذا يجب أن تبنى على قاعدة المساواة، فالثقافة يمكنها أن تلعب دوراً جوهرياً في خلق بيئة إيجابية، للتغيرات الاجتماعية، فهي أقوى داعم لتنفيذ الخطط وتحقيق الأهداف إذا ما خُلِّصت [3]. إنَّ بإمكان الثقافة الامتداد الى ما وراء حدود الجماعات العضوية ويمكن القول بأنَّ هنالك نوعين من التنوع الثقافي، فقد يكون تنوع ثقافي خارج الوحدة الواحدة وقد يكون داخل الوحدة نفسها، فعندما نحلل الثقافات والعلاقات الاجتماعية نعثر على عناصر معينة تبين لنا أنَّه من الواجب علينا نصلح طريقة فهمنا لأسباب الاختلافات الثقافية و لدواعي الخلافات وعدم

[1] – كوش دينيس، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، ترجمة منير السعيداني ، 31

[2] – الصاوي علي سيد، نظرية الثقافة ، 23

[3] – ينظر: امارتيا سن، التنمية حرية مؤسسات حرة و انسان متحرر من الجهل و المرض و الفقر ، ترجمة : شوقي جلال ، 37

التسامح والجدل الأيديولوجي والخاصيات المميزة. ذلك أنَّ تفسير وظيفة الإيديولوجيات وأشكال عدم التسامح بين المجموعات داخل المجموعات المنقسمة والسياسية المتأتية من المشاعر الشخصية ومن بعض العلاقات الاجتماعية والمناورات الطبقية .[1] فتجميع الاجزاء داخل الكل لا يلغي التعددية بل على العكس تماماً، إنَّما يشترط مسبقاً تعاوناً بين كل الهويات الثقافية .[2] والمجتمع يجب أن يقوم على اصول لتشكيل صورته الثقافية ((وجوب حصر ومعرفة الأصول الحضارية والثقافية والتاريخية التي ينشأ بموجبها المجتمع، وتكون سببا في تطوره أو تدهوره))[3]. أما القاعدة الثانية التي تعتمد عليها بناء المجتمع فهي معرفة الآخر: ويعتبر بعد الآخر ومعرفة المسافة التي بيني وبينه هي القواعد التي بنى عليها المجتمع المتحرك الذي هو أولا نتاج عالمنا الداخلي ،ثانيا هو نتاج عالمنا الداخلي، وثانيا نتيجة لعملية تطورية للتداخل الحاصل بين الأنا والآخر، وعالمنا الداخلي هو مبعث الأفكار المنتجة والمحافظة على المجتمع.[4]

إننا بحاجة الى قبول الآخر وتحويل الآخر الى اللاآخر عبر ايماننا بان الذي يجمعنا يتجاوز ما هو ظاهري وشكلي. وبالتأكيد ان قبول الآخر سيقودنا الى التغيير، ولا نقصد تغيير الآخر بل تغييرنا نحن كي يمكننا من قبول الآخر. وعلى المستوى الشخصي ترسيخ مفاهيم كالموضوعية على حساب الذاتية ونشر ثقافة التنوع والاختلاف على حساب ثقافة التجانس والتشابه والتحول من ثقافة القهر الى ثقافة المشاركة ومن السلبية الى الايجابية والاهم من كل ذلك التحول من وهم التطابق إلى وعي الاختلاف.

---

[1] – ينظر : بيار باولو دوناتي ، صورة الاخر في العلاقة (مواطن / اجنبي) ملاحظات اولية ، اعمال ندوة (صورة الاخر) ، 142

[2] –ينظر: المصدر نفسه ، 147

[3] – الأعرج واسيني ، تجربة الكتابة الواقعية، الطاهر وطار أنموذجا، 58

[4] – ينظر: العشمي عائشة ، حضور الاخر في الخطاب الروائي الجزائري –قراءة في رواية شرفات بحر الشمال لواسيني الاعرج ، مجلة التواصلية، م 2 ، ع 8 ، 2017 ، 99

ومن العوامل الأخرى التي تساعد على قبول الآخر، المحبة واحترام الآخر وتشجيعه والانصات اليه وسماعه واعطاؤه فرصة للتعبير عن رأيه. وان فن الانصات والحوار من اهم عوامل قبول الآخر والتضحية من أجل الآخر. ويجب عدم الايمان باننا دائما مستقيمون واعداءنا دائما اشرار.

ان ثقافة اللون الواحد وثقافة الغاء الآخر وتهميشه وسيادة المفاهيم الاقصائية سوف لن تؤدي الا الى المزيد من التفكك المجتمعي والعنف وسيادة العنف بدل اللاعنف وتزايد الحقد والكراهية والتعصب بين ابناء المجتمع الواحد، قد نتجاوز بذلك الى الشكل الآخر للقبول عند الاختلاف بين ايمان وايمان والذي لا يشير الى صحيح واكثر صحة أو افضل او اعلى وادنى بل قد لا يتجاوز مسالة الاقتناع بهذا الدين الذي توارثناه من اجدادنا ويجب الادراك بان ما استطيع بلوغه عبر عقيدتي يستطيع الآخر ايضا بلوغه عبر عقيدته لأن الاديان من ناحيتها الوظيفية تكاد تكون واحدة الى درجة التطابق.

إن التنوع الثقافي في ظل الوحدة الإنسانية، يحكم على البشر بالتعايش الثقافي، ويعمّق مفهوم التثاقف لدرجة أصبح معها عنصراً رئيساً من عناصر المجتمع الدولي المتحضّر . وإن تنوّع الثقافات ضرورةٌ اجتماعية تاريخية، وضمانٌ للنهوض، وإن ارتقاء حياة الإنسانية في شتى المجتمعات، وعلى مدى التاريخ، رهنٌ بتنوّع الثقافات وتفاعلها، وبتباين الرؤى، وباختلاف الآراء، وبتوافر آليةٍ اجتماعية تكفل التفاعل الإيجابي الحر.[1]

فالإقرار بالتنوع الثقافي وكفالة حمايته صارا اليوم من مبادئ القانون الدولي، فقد جاء في المادة الأولى من(**إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي**) [2]، أن لكل ثقافة كرامة وقيمة يجب احترامُهما والمحافظةُ عليهما، وأن من حق كل شعب ومن واجبه أن ينمّي ثقافتَه، وأن جميع

[1] – ينظر : مايكل كارذيرس الثقافات البشرية نشأتها و تنوعها ، ، ترجمة : د.شوقي جلال ، 7

[2] – إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي، المادة الأولى، أصدره المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، – يونسكو – في دورته الرابعة، يوم4 نوفمر 1966 م.

الثقافات تشكّل بما فيها من تنوّع خصب، وتأثيرٍ متبادل، جزءاً من التراث الذي يشترك في ملكيته البشرُ جميعاً .[1]

الخاتمة:

1- إنَّ قضية الأنا والآخر لا ترتبط دائما بوجود علاقات ثقافية فقط بين الطرفين، وإنما يتسع المجال ليشمل العلاقات بين الجنسين (ذكر-أنثى) والعلاقات الاجتماعية، كما يحدث في إطار العرق والأقليات واللون أو حتى الدين والانتماءات الجنسية ضمن إطار جغرافي واحد.

2- الآخر هو كل ما يتم التعامل والتفاعل معه ويُتخذُ منه موقفاً سلبياً او ايجابياً في اطار هذا التفاعل.

3- الاستغراب يتجه الى دراسة (الآخر) معرفياً و ثقافياً وحضارياً، وتحويل (الأنا) المعرفية الواعية إلى ذات دارسة، وهو كل المعرفة التي حصل عليها (الآخر) من عندياته أم من عنديات الحضارات الأخرى الى معرفة نسبية يمكن مسك خيوطها و توضيح فجواتها بطرائق علمية عقلانية غير مفتعلة.

4- الاستغراب ليس نفياً (للآخر) وليس الحكم عليه بالموت، وليس اسقاط العقلانية عنه، وليس نفياً معرفياً له، إنَّه بكل وضوح درس علمي لنتاجاته، وعودة الثقة الغائبة عن (الأنا) منذ عقود ساد فيها الانبهار والانحناء والتعظيم لمعطيات (الآخر).

[1] – ينظر : التويجري د.عبد العزيز بن عثمان ، الثقافة العربية و الثقافات الاخرى ، 44

5- ينظر البحث للاستشراق من خلال الدرس الثقافي لم تكن رؤية دفاعية عن (الآخر/ الشرق) بقدر ماهي رؤية احتوائية للآخر.

6- إن مستقبل البشرية مرهونٌ بإقامة حوارٍ متحضّر وعاقلٍ ورشيد بين الحضارات والأديان. ولذلك فإن العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الأخرى، لابدّ وأن تقوم على أساسٍ متينٍ من الحوار والتعايش الحضاري والثقافي، والإفادة من كلّ جديد نافع ويظهر ذلك من خلال التسامح وقبول الآخر .

7- يكمن المنطلق الأساس للتسامح الثقافي في القدرة على احتواء التباين بروح نقدية، ورفض مختلف أشكال التعصب، لأن التباينات في ا تمع المتعدد ليست تباينات في الآراء بل تباينات ثقافية، والتباينات في الآراء متحركة بحيث إن معارض اليوم قد يكون حليف الغد في حين إن التباينات الثقافية لها حدود مرسومة تتميز بالصلابة والاستمرار والدوام دون أن تكون حتما نزاعية.

8- ان ثقافة اللون الواحد وثقافة الغاء الآخر وتهميشه وسيادة المفاهيم الاقصائية سوف لن تؤدي الا الى المزيد من التفكك المجتمعي والعنف وسيادة العنف بدل اللاعنف وتزايد الحقد والكراهية والتعصب بين ابناء المجتمع الواحد، قد نتجاوز بذلك الى الشكل الآخر للقبول عند الاختلاف بين ايمان وايمان والذي لا يشير الى صحيح واكثر صحة او افضل او اعلى وادنى بل قد لا يتجاوز مسالة الاقتناع بهذا الدين الذي توارثناه من اجدادنا ويجب الادراك بان ما استطيع بلوغه عبر عقيدتي يستطيع الآخر ايضا بلوغه عبر عقيدته لان الاديان من ناحيتها الوظيفية تكاد تكون واحدة الى درجة التطابق.